الفصل الخامس

قصّاصون صامتون وأساطير مفقودة

Silent Storytellers, Lost Legends

في البدء...كانت البطة الأولى.

- أسطورة الخلق عند التوفا.

"مع أنه لم يكن لدى الإنويت نظام للكتابة فإن قصصهم ظلت حية، يتناقلها الآخرون عبر الذاكرة. لقد احتفظ الإنويت بهذه القصص والذكريات في عقولهم لوقت طويل."

- ليبا بيتسيولاك Lypa Pitsiulak، فنانة وقصاصة من الإنويت، منقول من كتاب "نوفيسافيك: المكان الذي نعيش فيه" Nuvisavik: The Place Where We Live لماريا فون فينكينشتاين Maria von Finckenstein.

"لم يعد أحد يريد أن يسمع القصص القديمة مرة أخرى"

- شويداك أُول Shoydak-ool، قاص ملحمي من التوفان.

لقد احتج شويداك أُول مشيراً إلى كاميرا الفيديو المعدة للتصوير على حاملها الثلاثي قائلاً " لكني لا يمكن أن أقص حكاياتي لهذا الشئ، يجب أن يكون هناك جمهور. إنني لا أقص حكاياتي إلا للبشر". كنت قد وصلت إلى قرية أريج أوزو الصغيرة في جمهورية التوفا وهي تمثل قطاعاً منعزلاً من الجبال السيبيرية الجنوبية في

داخل روسيا وهي مشهورة بمغنييها الحلقيين throat singers وبالبدو الذين يمتطون الخيول الملونة. كانت قرية تقع على مرمى حجر من الطريق الشرقي-الغربي الرئيس في التوفا والذي يجري عبر تلك الجمهورية من الشرق إلى الغرب. ومن النادر أن يمعن السائحون العابرون والمسافرون النظر إلى قرية أريج أوزو مع أنها واضحة للعيان من الطريق.

ما جاء بي إلى قرية أريج أوزو في يوم شديدة الحرارة من أيام أغسطس سنة ١٩٩٨م كان ما وصل إلي من أخبار بأن أحد القصاصين التوفانيين والموهوبين موهبة كبيرة، والذي لم يكن معروفاً لدى الباحثين الذين يقومون بتجميع القصص التراثية، يعيش ويمارس هوايته القديمة هنا في هذه القرية. لقد مشى بي دليلي التوفاني إلى البيت الخشبي الصغير المتواضع حيث عثرنا على شويداك أول القصاصين، فوجدناه يرعى بقرتين ويسكت الكلب الغاضب الذي كان يربطه في سلسلة قصيرة في الفناء. فأشار إلينا لندخل البيت بينما كان يحجز الكلب في الخلف.

كان شويداك أُول رجلاً نشيطاً خفيف الظل يبلغ اثنين وسبعين عاماً، وكان قد أحال نفسه إلى التقاعد من وظيفته والتي كان يقوم فيه بقيادة آلة الحصاد في مزرعة جماعية ليمارس حرفته في القص. وبين الفينة والفينة، كان شويداك أول، أحياناً، يقص القصص في "المركز الثقافي" cultural center داخل القرية أو توجه إليه الدعوة من إحدى المدارس المحلية. في السنوات الأخيرة تناقصت فرص قيامه بحرفته. فقال متحسراً "لم يعد الناس مهتمين بالقصص القديمة، فالأطفال يريدون مشاهدة أفلام جاكي شان هذه الأيام." وقلت لنفسي، مستحضراً تشبيهاً لائقاً، إن أبطال الأساطير التوفانية غالباً ما يمثلون نفس الشخصية الأنموذج archetypal التي نجدها في أفلام الحركة "هونج كونج".

في القصص التوفانية، هناك الطفل المسكين والمسمى"الولد اليتيم" Orphan boy، والذي لا يملك أي ميزات ظاهرة، وليس لديه هدف واضح في الحياة غير أنه يمتلك سرعة البديهة والمثابرة، وقوة الشخصية. يتغلب الولد اليتيم على الآخرين بذكائه، وفي النهاية يهزم الخان الشرير evil khan ويحصد الجائزة (ربما تكون عروساً أو ثروة) وفي الطريق هناك دائماً لحظة من الشك الذاتي وهنا يتلقى الولد نصيحة من رجل حكيم أو امرأة أو من حيوان ماهر يساعده. دائماً ما تكون هذه النصيحة غامضة ولا يتضح معناها إلا لاحقاً في أحد اللحظات المهمة في خط الحبكة. وغالباً ما يطلب إلى البطل أن يتخلى عن الشيء الوحيد الذي يمتلكه حتى يفوز بالجائزة النهائية.

لكي نجد لشويداك أول الجمهور الذي كان يطلبه، انطلقنا في السابعة صباح اليوم التالي في سيارة جيب نتنكب مطبات الطريق فوق أشياء تشبه الأخاديد المتوازية وتحركنا نطأ كومات كبيرة من الأتربة. وصلنا إلى معسكر الصيف البدوي الذي يتكون من أقارب شويداك أول لنجد الأسرة لا تزال تغط في نومها. أيقظهم شويداك أول بقوله "لقد جئتكم كي أقص عليكم حكاية"، فاشرأبت الرؤوس الشعثاء من تحت الأغطية. غسل الشباب أوجههم وذهبوا كي يطلقوا الأغنام والخيول من حظائرها للرعي. كان هناك حصان غائب واتضح أنه قد سرق أثناء الليل مما أثار حنق المعسكر بأكمله.

بعد عشرين دقيقة وبعد غلي الشاى الممزوج بالحليب المملح وبعد انتهاء الأعمال المنزلية تقريباً، فتح شويداك أول حقيبة جلدية بالية وأخرج أدواته: حبل قرنفلي اللون لامع بحزام، وقبعة مدببة تشبه قبعة سانتا كلوزSanta Claus . طلب شويداك أول من راعية الخيمة طاس شاي وملعقة خشبية مثقوبة تستخدم في الاحتفالات (تسمى توس كاراك tos-karak أى ذات الأعين التسع nine-eye) وتستعمل

في رش الشاي، كقربان للأرواح، فلا تقص أي حكاية توفانية إلا إذا سبقها هذا الطقس الديني. بدأت القصة وكانت مثيرة للتشويق.

في هذه القصة، تنطلق البطلة، فتاة تسمى بورا Bora، في سعيها لإعادة أخيها الميت إلى الحياة مرة أخرى. وفي أثناء الطريق يتوجب على هذه الفتاة أن تستعمل قوى سحرية وتقوم بأعمال خارقة تعتمد على نصائح حصانها السحري الناطق. يخبرها الحصان أنه لكي تبعث أخاها إلى الحياة من جديد عليها أن تحظى بالزواج من أميرة. فتستعمل بورا قدراتها المتغيرة لإخفاء نفسها على أنها رجل وبمجرد تغيرها إلى رجل تكتشف أنه مع أن لها لحية وعضلات فهي لا تزال بها خصائص جسمية تنبيء عن أنوثتها. يساعدها حصانها الماهر في استكمال تحولها الجنسي وذلك بلصق فرو الدب على نهديها وتركيب رأس أوزة كعضو ذكري لها.

الشكل رقم (١,٥). شودياك أورل خوفالنج (ولد ١٩٢٩ م)، قاص ملحمي توفاني، ٢٠٠٣ م. إهداء من كاثرين فنسنت Katherine Vincent.

وحينما تجهز بورا نفسها بكافة أجزاء الجسد الذكري المزيف تدخل في مسابقات الخان في رمي السهام والمصارعة وركوب الخيل وتفوز بها جميعاً. ويمكنها هذ الأمر من الفوز بالزواج من الأميرة والتي تستعمل بعد ذلك سحرها الخاص والأكثر قوة لإعادة أخيها بورا إلى الحياة مرة أخرى. وفي نهاية سعيدة، بحق، تتزوج الأميرة من أخي بورا وتتحول بورا مرة أخرى إلى فتاة وتتزوج خطيبها ويعيشون في رخاء على السهول المعشبة العالية مع ممتلكاتهم من قطعان الأغنام والجمال[١].

فيما كان شويداك أول يقص حكايته، كان الجمهور يستقبل الأجزاء البذيئة من قصته بالضحك والأجزاء المشوقة بعبارات التوقع. لقد كنا معاً، مجموعتنا الصغيرة المكونة من أسرة من البدو تتراوح أعمارها بين السابعة إلى الخامسة والسبعين والذين كانوا قد استيقظوا من نومهم، وأنا معهم، لغوي الأمريكي، على موعد مع تجربة نادرة الحدوث. فلم يكن معظم التوفانيين يستمعون إلى عرض حي لقصة ملحمية تراثية، ولا حتى إلى تسجيل لها. لقد كان الشيء الذي جعل هذا الحدث أكثر إثارة للمشاعر هو الإحساس بأن هذا النوع من القص قد نفقده عاجلاً إلى ذمة التاريخ.

منذ فترة طويلة وفي الماضي الترحالي للتوفانيين كان فن الحكّائين (يطلقون عليهم اسم التولدجو tooldzu) شكلاً شعبياً محترماً من الترفيه. عند الوصول إلى مكان المعسكر يبدأ التولدجو (الحكّاء) في سرد قصته في وقت قريب من الغسق، في الوقت الذي يستقر فيه البدو لشرب الشاي المملح بالحليب ويأججون نيرانهم. حينما يتحول الضوء داخل الخيمة إلى ما بين النور والظلمة، وتبدأ النجوم في الظهور من خلال الفتحة المستديرة، تسمع الكلمات "في يوم من الأيام" Shyaan am تقال في صوت غنائي يستعمله القصاصون. قد تستمر القصة لأمسيات متعددة وإلى وقت متأخر من الليل[٢].

لا توجد مثل هذه المناظر القصصية في الوقت الحالي إلا في ذاكرة الشيوخ

التوفانيين. لم يعد حكي القصص مهنة ولا حتى مجرد حرفة. فلا ينجذب إليه إلا القليل من الشباب ذوي المواهب، فهو لا يقدم لهم حرفة للاكتساب. حين فاز شويداك أول بمسابقة الحكي في ٢٠٠٢ م كانت جائزته الوحيدة زجاجة حافظة للحرارة (ترمس) واثني عشر طاسة شاي. ها هو ممارس ومعلم لفن يتلاشى يعيش في فقر مدقع.

الكتابة ليست هي اللغة

إن ما يمنح بعض العزاء هو أن القصص التوفانية قد دوّنت في كتب وسجل بعضها على مسجل صوت أو صورة، فبعد أن يتلاشى تقليد حكي القصص الموجود الآن، سوف تستمر القصص بشكل أو بآخر[٣]. غير أن القصص المكتوبة لا تمثل إلا شكلاً فقيراً من تلك المحكية شفاهة. فلا تستطيع في أي جزء من أجزاء النص المكتوب أن تحس بنغمة الصوت وارتفاعه، ولا بالإثارة، ولا بملامح الوجه وتعبيراته، ولا بالإيقاع... هذه هي الأشياء التي تجعل القصة تنبض بالحياة.

الشكل رقم (٥,٢). قاص توفاني صغير موهوب وهو أيدنج برتان أول Aidyng Byrtan-ool (ولد عام ١٩٨٨م) وهو يغني قصة ملحمية في ٢٠٠٣ م. تصوير ك. ديفيد هاريسون.

بمجرد أن تكتب القصة فإنها تتحجر في شكل جامد، فلا تبقى على جاذبيتها لأجيال متعاقبة من القصاصين الذين يتصرفون مع النص بحرية، فيجملونه أو يغيرونه. فلا تصبح القصة فناً حياً بل تصبح شيئاً محنطاً. لقد أصبح هذا مصير أغلب التقاليد الشفهية في معظم لغات العالم الكبرى. فنحن نعرف الملاحم الإغريقية الهومرية، لا لكونها لا تزال تراثاً حياً يتلوه شعراء غير مبصرين، بل لأنها دُوِّنت في شكل كتابة، وقد نجدها في بطون الكتب.

في حين تمكّن الكتابة التقاليد الملحمية من أن تبقى في شكل من الأشكال، إلا أنها في ذات الوقت تضعف البيئة التي تحتاجها الفنون اللفظية كي تزدهر. فالتقاليد الشفهية هي تقاليد راسخة، بقيت، لقرون عديدة، وعبر ثقافات متعددة، الوسيط الأوحد في نقل المعلومات، غير أن هذه التقاليد هشة، أيضاً، وقد لا تنتقل إلى الشكل الكتابي إلا وقد أصابها تغير كبير. تصف نورا داونهاور Nora Dauenhouer، وهي عالمة ومتحدثة أصلية باللغة الألاسكية الأصلية "تلنجت" Tilingit كيف يمكن للكتابة أن تغير من التقاليد الشفهية قائلة:

> بغض النظر عن كون تدوين الأدب الشفهي عملاً حميداً ومتميزاً في النقل عن الأصل، إلا أن هذا التدوين من شأنه أن يصيب الأدب الشفهي بالتحجر. قد تبدو كتلة الخشب المتحجرة مثل شجر الغابة، إلا أنها في الحقيقة قطعة من الحجر.. ولكن لا يخلو التحجر من ميزات. فقد ساعدنا في الحفاظ على الإلياذة والأوديسا. ولكن رغم عظم الملاحم الهومرية إلا أنها على وضعها الراهن ليست إلا حفريات متحجرة ولا تمثل الأداء الشفهي الذي مارسه الأغريق[٤].

ليست الكتابة هي الوسيط الأمثل للقصص التراثية ولا تمثل، على الإطلاق، الحالة الطبيعية للغات العالم. ورغم أن عمر الكتابة يبلغ آلاف السنين إلا أنه أمر جديد

على البشرية. لقد كان فن القص القديم، على مدار التاريخ، ممارسة لفظية محضة. فلا تستخدم معظم اللغات الحية ولا فنون القص في العالم الكتابة على الإطلاق.[٥] ورغم عدم توافر إحصاء دقيق للأشكال الكتابية الموجودة في لغات العالم، والتي يزيد عددها عن ٦٩١٢ لغة، إلا أن التقدير المعقول لذلك هو أنها تقل عن ربع هذا العدد، أي حوالي ١٧٠٠ لغة. وحتى فيما يتعلق بكثير من هذه اللغات فإن الشكل الكتابي الوحيد المستخدم بها هو نظام مخترع، أو فرضه أناس من خارج اللغة (الإرساليات التبشيرية، مترجمو الإنجيل، العلماء) ولا تعرفه المجتمعات اللغوية على نحو واسع، أو ربما لا يكون مستعملاً بها. يمكن للغات أن تعيش وتنتعش دون القراءة والكتابة.

ليس لدينا تقدير حديث أو دقيق لعدد لغات العالم التي بها أنظمة للكتابة وتنتشر بها القراءة و الكتابة على نحو واسع. فيؤكد والتر أونج Walter Ong قائلاً :

> يغلب في اللغة الطابع الشفهي إذ إنه من بين الآلاف المؤلفة من اللغات، ربما عشرات الآلاف، والتي تحدثها البشر على مدار التاريخ لم تستخدم الكتابة منها، إلى الدرجة التي أنتجت آداباً، سوى ١٠٦ لغة فقط. ومعظم اللغات لم تدون على الإطلاق. ومن بين اللغات البالغة ثلاثة آلاف والتي لا تزال مستخدمة حتى اليوم، ٧٨ لغة فقط هي التي أنتجت آدابًا[٦].

تعد الأرقام التي يذكرها أونج والمقتبسة من مصدر يرجع تاريخه إلى عام ١٩٧٢م، أرقاماً قديمة نسبياً مقارنة بالأرقام التي ذكرناها آنفاً والتي تذكر حوالى ٧٠٠٠ لغة تقريباً يتحدثها العالم اليوم. وبغض النظر عن دقة الأرقام التي قد نصل إليها، فمن الواضح أنه لا يوجد سوى القليل من اللغات في العالم التي تمتلك نظاماً كتابياً يستعمله مجتمع المتحدثين باللغة. وقد يكون عدم انتشار الكتابة من عوامل نشاط الفنون اللفظية. فكثير من لغات العالم الصغرى تفتقر إلى نظام للكتابة غير أنها تنعم

بتقاليد قص شفهية وأنواع متعددة من الملاحم.

نعاني في ثقافتنا الناطقة بالإنجليزية من انحياز لصالح القراءة والكتابة ونحن نفترض في ذلك أن الكتابة هى الأصل بينما الأمر ليس كذلك ؛ وننظر إلى الأدب على أنه شيء كتابي في الأصل. ترى عالمة الأنثروبولوجي إليزابيث بَك Elizabeth Buck أنه "من الصعب على من امتزجت بفكره آليات الكتابة وما تمليه من افتراضات أن يدرك العمليات الفكرية و الاجتماعية لثقافات لا يبقى أثرٌ لكلماتها متى خرجت من الشفاه سوى ما تحفظه الذاكرة البشرية"[٧] . وتمضي العالمة في ملاحظاتها بأنه طوال التاريخ الاستعمارى، غالباً ما كانت المجتمعات الكتابية (الاستعمارية) ترى الثقافات غير المكتوبة على أنها ثقافات "بدائية" أو "دونية". وفشلت المجتمعات الاستعمارية فشلاً ذريعاً في تذوق الفنون اللفظية لتلك المجتمعات رغم أنها كانت غاية في الإبداع. إن هذا الأمر مثير للسخرية إذ إن المعيار الغربى في التقييم ينبع من أعمال مثل الإلياذة Iliad والتي قُدِّر لها أن تخرج في غياب الكتابة (رغم أن الكتابة هي التي ساعدت تلك الأعمال في أن تبقى حتى اليوم)، غير أننا لا زلنا ننظر إلى عدم استخدام الكتابة كنوع من التخلف الاجتماعي.

قوة التقاليد الشفهية

إذا خلدنا للتأمل للحظات قليلة وفكرنا ما الذي تعنيه الثقافة إذا كانت ثقافة شفهية خالصة، غير مكتوبة، فقد نخرج بشيء مفيد. فلنتأمل الحياة بدون قوائم بقالة، ولا خطابات، ولا رسائل بريد الكتروني، ولامذكرات، ولا رسائل للجوال، ولا كتب، ولا بطاقات تقارير، ولا إرشادات مكتوبة لكيفية عمل أشجار اصطناعية لأعياد الميلاد، ولا كتب إرشادية لمشتري الأجهزة، ولا معاجم، ولا جرائد، ولا

مكتبات. هذه هي الحالة الطبيعية للأمور في معظم اللغات الإنسانية.

غير أن الثقافات الشفهية، التي تفتقر إلى الكتابة، تنجح في نقل أنظمة واسعة من المعرفة التراثية، كما نرى في هذا الكتاب، بل وتذكرها وتتخذها كنقطة ارتكاز. تقوم الثقافات الشفهية بكل ذلك دون الاستفادة من أي وسيط مادي كالكتابة التي تثبت هذه المعرفة. إن هذا العمل المدهش الذي تقوم به الذاكرة الجماعية و الفردية من شأنه أن يجعلنا ندرك مدى قوة اللغة في نَظْم المعلومات ونقلها.

بدون الكتابة تظل المعارف المرمزة لغوياً دائماً على بعد جيل واحد من الانقراض، فإذالم تنقل تلك المعارف شفهياً فإنها تضيع، وهذا يعني أن ما ينقل هو شيء أساسي وفي غاية الأهمية، وليس بالهين ولا الهامشي في الحياة الإنسانية. وهذا يعني، أيضاً، أنه لا يوجد سوى الحكمة المنقولة وأن كل من يقوم بنقل المعلومات عليه أن يطورها ويجملها وينقحها من خلال خبرته. كل شيء هنا يشبه الكوميديا المرتجلة improv comedy التي يعتمد كل شيء فيها على الذاكرة الفردية والإبداع، فلا توجد ثوابت.

في الثقافات التي تكون "شفهية بصورة أولية" primary oral، يعتمد الناس على مَعين رائع من إستراتيجيات الخطاب: الإستراتيجية الروائية، وإستراتيجيات الحديث العادي، و النميمة، والمحادثة، والتوقف أثناء الكلام، والتنغيم، والصمت، وارتفاع الصوت، واختيار الكلمات، والقص والأسطورة[٨]. ويعتمد الناس في تلك الثقافات على التعلم الاجتماعي لنقل كل ما ترمزه اللغة واستقباله. وينبغي أن تكون المعلومات اللغوية مرتبة لخدمة سهولة الحفظ، وهناك وسائل متعددة لذلك منها استخدام الجناس الاستهلالي alliteration، والقافية rhyme والتوازي التركيبي parallelism، وكل هذا من شأنه أن يساعد في تذكر النصوص الطويلة. تعد كل هذه الوسائل في اللغة

الإنجليزية وغيرها من اللغات الكبرى ذات التراث الأدبي وسائل فنية أكثر من كونها وسائل معرفية ضرورية تستخدم في الحياة اليومية. أما في اللغات غير المكتوبة فيساعد الاعتماد على استخدام هذه الطرائق الحفظية في تذكر كم هائل من المعارف اليومية العامة والخاصة وتراكمها.

غالباً ما تتوزع مثل هذه المعارف توزيعاً اجتماعياً معيناً يساعد على تحقيق الكفاءة المعرفية. إن من يملك معارف مميزة أو خاصة في مثل هذه المجتمعات ليسوا هم أهل المكتبات أو مديرو المواقع على الشبكة العنكبوتية، ولكنهم الشمانيون والقصاصون. وتنتقل المعرفة بوسائل تسمح بتوزيعها بين من يحتاجها من الناس وبين من يلقى على عاتقهم مسئولية تذكرها. فعند قبيلة الباتانجان Batangan في الفلبين (٨٠٠٠ متحدث)، لا يدرس الطب الشعبي folk medicine سوى الصبية، بينما لايتعلم الترانيم والطقوس الدينية إلا البالغون من الذكور[٩].

بمجرد أن تعبر المجتمعات إلى عالم الأدب، تصبح الكتابة عندهم أمراً لا غنى عنه. غير أن السؤال هو: هل يضحي شعب ما بأى شيء من أجل كسب هذه الجائزة؟ هل يفقد هذا الشعب شيئاً أساسياً عندما تفسح ثقافة لفظية محضة الطريق أمام الكتابة؟ تقع الإجابة على هذا السؤال خارج المجال اللغوي أو الأدبي، مما يثير أسئلة أساسية في الفكر والثقافة وعلم النفس. لقد بدأ العلماء، لِتَوَهِّم، في الكشف عن الطريقة التي تحكم عمل الثقافات الشفهية المعاصرة (من النواحى الاجتماعية، والمعرفية والفنية والنفسية) وعما نفقده نحن (أي الثقافات الكتابية) نتيجة لتواكلنا، كل التواكل، على الكلمة المكتوبة.

نظراً لانخراطنا الطويل مع الكتابة، يصعب علينا مجرد تخيل كيفية تغيير حياتنا اليومية (في الفكر والحديث والتفاعل) في غياب الكتابة غياباً كاملاً. ما الذي يمكن أن

يختلف في مجالات تدفق المعلومات والمحادثات الاجتماعية القصيرة small talk والمحادثة العامة conversation والتسوق المنزلي، وحتى في مجال التراكيب القواعدية؟ هل يمكن لذاكرتنا أن تنهض بهذه المهمة؟ كيف يمكننا أن نتكيف مع تلك الأوضاع؟

لا نمتلك أمثلة موثقة توثيقاً تاريخياً جيداً عن مجتمعات كانت تستعمل الكتابة ثم تخلت عنها. غير أن لدينا أمثلة معاصرة لمجتمعات كاملة لم تتعلم الكتابة بعد أو لم تتعلمها إلا مؤخراً. قد نتعلم الكثير من مثل تلك المجتمعات، غير أن النافذة تضيق إذ إن الكتابة قد أصبحت هى الحالة الطبيعية في العالم.

لقد أعطت الحكومات والمنظمات غير الحكومية في كل أنحاء العالم أولوية للكتابة، فيشير تقرير اليونيسكو إلى أن نسبة من يكتبون في العالم بلغت ٨١,٨ ٪ في الفترة من ٢٠٠٢ حتى ٢٠٠٤، وهذه النسبة تزيد عما كانت عليه عام ١٩٧٠م حيث أشارت تقديرات البنك الدولي إلى أن النسبة كانت قد بلغت ٥٥ ٪، وفي تقرير عام ١٩٩٠ بلغت النسبة ٧١ ٪ [١٠]. يعود السبب في هذه الزيادة إلى الحملات القومية، كتلك التي نظمتها الهند والتي نجحت في زيادة معدلات من يجيدون القراءة والكتابة من ١٨,٣٣٪ عام ١٩٥١م إلى ٦٤,٨٤٪ عام ٢٠٠١م[١١]. وهذه الحملات، وهي تستحق الإشادة بها، تجعل من عدم القراءة والكتابة أمراً سلبياً باستخدام شعارات مثل "تعلم القراءة والكتابة هي الحرية" Literacy is freedom (وهذا يعني أن عدم القدرة على القراءة والكتابة هو نوع من العبودية أو السجن)[١٢]. وتختفي وراء تلك الإحصاءات حقيقة أن القدرة على القراءة والكتابة تعني القدرة على القيام بها ولكن في إطار اللغة القومية المسيطرة أو اللغة الإقليمية (كاللغة الهندية أو الإنجليزية). لسوف تختفي العديد من اللغات الصغيرة دون أن يكون لها متحدثون يجيدون القراءة والكتابة، ونادراً ما يتم تضمين اللغات الصغيرة في عداد الحملات القومية للقراءة

والكتابة. وللأسف، فإن تعلم القراءة والكتابة في اللغات القومية الكبرى عادة ما يكون هو البداية لعملية تعليمية تؤدى إلى التخلي عن اللغات الصغيرة.

في الوقت الذي نرى فيه أن تعلم القراءة والكتابة أمرٌ مرغوبٌ وجيدٌ من وجهة النظر المعاصرة، فإنه يجدر بنا، أيضاً، أن نستكشف المجتمع الإنساني الطبيعي في حالته اللاكتابية، وهو ماثل أمامنا ويمقدورنا أن نلاحظه على هذه الحالة. سوف أصف في الصفحات التالية حالة لغة صغيرة اكتسبت الكتابة مؤخراً والتأثير الذي أحدثه ذلك على المجتمع هناك.

شاهد على لحظة الميلاد

في إحدى الرحلات التي قمت بها ، عام ٢٠٠٣ م، لزيارة قبيلة الأُس ös البعيدة في وسط سيبيريا كنا، اللغوي جريج أندرسون Greg Anderson وأنا، شهود عيان على ميلاد نظام كتابة جديد في لغة لم يكن لها نظام كتابي على الإطلاق. يسكن أبناء قبيلة الأس قرى متناثرة في غابة سبخة في سيبيريا، حيث يمارسون حياتهم في صيد الأسماك والحيوانات وجمع الثمار، ولا يزال كبار السن من قبيلة الأس، وقد بلغوا الآن التسعينيات من أعمارهم، قادرين على تذكر الوقت الذي كان فيه آباؤهم وأجدادهم يعيشون في خيام من لحاء الشجر. وهم يعيشون اليوم في كبائن صغيرة من الخشب في القرى المتناثرة ويزرعون الخضروات ويقومون بصيد الأسماك وحيوان الموظ moose والدببة ويجمعون التوت والنباتات الصالحة للأكل. وقد بلغ الفقر بقبيلة الأس مبلغاً، ولا تتوافر لديهم الضرورات الأساسية للحياة كالرعاية الصحية والصرف الصحي والطرق.

لقد مر الأُس، أيضاً، بكارثة النسيان الثقافي، فقد تعرضت لغتهم

للإجهاض، فأجبر شيوخ اليوم، وقت أن كانوا صبية، على التحدث بالروسية فقط وكتابتها وقراءتها. وقد طوى النسيان ما لدى القبيلة من تقاليد للقص الملحمي أو أساطير أو حكايات شعبية أو أغنيات. ففي حملات قمنا بها في عامي ٢٠٠٣ م و ٢٠٠٥م، لم نجمع سوى مثلين من الأمثلة الشعبية وأغنية واحدة حول غزل الصوف ومجموعة من القصص المقتضبة (ما يقرب من ٢٤ قصة) حول صيد الموظ والدببة. جمعنا أيضاً أحاديثَ من أحاديث الماضي العادية عن أناس يتحدثون عن حياتهم وماضيهم والصيد الذي قاموا به وتاريخهم الشخصي، غير أننا لم نجد أثراً لشعر ولا لحكايات ملحمية ولا لأساطير عن الخلق ولا ترانيم شامانية للعلاج ولا أحاجي.

لقد كان الألم يعتصر السيد فاسيا جابوف Vaysa Gabov (ولد عام ١٩٥١م)، وهو أصغر المتحدثين الطلقين بلغة الأس ودليلنا في الحملة، لأنه لم يُسمَح للغة الأس أن تبني أبجديتها. وكما حدث مع سيكوويه Sequoyah، العالم الشيروكي الأصل والذي اخترع أبجدية لقبيلته في ١٨٠٩م، كان فاسيا عاقد العزم أن يدخل إلى قبيلته تقنية الكتابة بلغتهم الأصلية. في الاتحاد السوفيتي، كان العلماء الروس هم من يصمم ويعطي الأبجديات وكانت القرارت السياسية حول من يحق له من شعوب الأقليات أن تكون لديه أبجدية هي من القرارت التي تتخذ في موسكو. لقد كان اختراع أبجديتك الخاصة من الجرائم المستحقة للعقاب، ومن ثم فإن الأس عاشت بلا أبجدية.

لقد أخبرنا فاسيا وأقرانه كيف أنهم كانوا محل سخرية لكونهم من الأطفال الأصليين ذوى البشرة السمراء في وسط روس شُقر في المدرسة الابتدائية. وأخذ يحكى أنهم كانوا يشعرونهم بالخجل من لغتهم ويمنعونهم من الحديث بها. في ظل تلك الضغوط، اتخذ هو وأبناء جيله قراراً (وهو قرار يشعرون بالندم لاتخاذه)، بهجر

استعمال الأس والتحدث بالروسية فقط. لقد اتخذ أطفال الأس قراراً كالذي اتخذه فاسيا، في نعومة أظفارهم، في سن الخامسة أو السادسة، غير مدركين أنهم بذلك يتنبأون بفقد لغة الأجداد. لقد كان جل اهتمامهم هو التكيف مع المجتمع واندماجهم فيه وتجنبهم أن يصحبوا محلاً للسخرية لكونهم مختلفين.

لقد ترعرع فاسيا لكي يكون عاملاً ناجحاً في المجتمع السوفيتي، فتزوج وأنجب الأولاد وكان يعمل كسائق شاحنة. ولأن فاسيا كان محباً للانطلاق حباً جماً فلم يفقد الرجل ولعه بالصيد، فكان يقضي أسابيع في كل مرة يخرج بها ليصطاد الدببة والموظ وغيرها من الحيوانات. وفي الليل، بينما كان يجلس فاسيا وحده في كوخ خشبي صغير في الغابة، اتخذ فاسيا قراراً جريئاً، وهو أن يؤلف مدونة للصيد بلغة الأس الأصلية. بالطبع كان فاسيا يعرف، مثل كل البالغين من الأس، كيف يقرأ ويكتب بالروسية. غير أن لغة الأس كان بها أربعة أصوات لاتوجد باللغة الروسية. ونظراً لكون فاسيا ليس لغوياً مدرباً، فقد قرر ألا يخترع حروفاً أربعة جديدة لهذه الأصوات، ولكن قرر أن يستعمل تكوينات جديدة من الحروف الروسية التي يعرفها فقط[١٣].

بعد وقت من الزمن، نفذ فاسيا نظامه الكتابي الجديد وبدأ في تسجيل فقرات في مدونته بصورة منتظمة. كان أحد الأمور التي حفزته لفعل هذا الشيء كلمات أمه له وهو صغير. يحكي فاسيا قائلاً "لقد أخبرتني أمي أنه يتحتم علينا أن نتحدث لغتنا، لغة الأس... فلندع الروس يتحدثون الروسية ولندع أبناء الأس يتحدثون الأس". لقد كان هذا الكبرياء اللغوي ملهماً له حتى يستمر في كتابته، بل جعله يجرؤ على التفكير بأن ينقل لغة الأس إلى جيل أطفاله. غير أن مدونة فاسيا كانت سيئة الطالع.

الشكل رقم (٥,٣). فاسيا جابوف يكتب أول نص باق بلغة الأس بنظامه الكتابي المختـــرع، ٢٠٠٣. تصوير ك. ديفيد هاريسون.

في يوم من الأيام، استجمع فاسيا شجاعته وأطلع صديقاً روسياً على مدونته والتي كانت تحتوي على فقرات كتبها بعد جهد مضن واستغرقت ثلاث سنوات. لقد كان رد فعل الرجل الروسي مدمراً لفاسيا، فقد سأله الصديق " ماذا تكتب هناك، وبأي لغة؟ ولماذا تكتب بلغة الأس؟ حينما سمع فاسيا كلمات الازدراء هذه، شعر كما لو أنه قد اقترف خطأً. لقد عاوده الإحساس بالخزي الذي كان ينتابه في المدرسة، وعاودته وصمة كونه مختلفاً. في لحظة استياء، ألقى فاسيا بمدونته بعيداً، ألقى كتابه الأول والوحيد الذي كتب بلغته الأس الأصلية في الغابة يتعفن. قال لي فاسيا في عام ٢٠٠٣ م "ربما كنت أريد أن أطلعك عليه، غير أنه ليس هنا، إنه لا يزال هناك حيث ألقيت به".

رغم هذا الإحباط الأول، وافق فاسيا، في ٢٠٠٣ م، أن يجلس ويطلع اللغويين الزائرين على كتابته. لقد كتب قصة بسيطة وسجل مقابلة مصورة تحدث فيها

عن نظامه الكتابي. شعر فاسيا بالأمان، فعبر عن افتخاره مرة أخرى بلغة الأجداد، ومضى قائلاً : " لقد أحببت دوماً لغة الأس وتحدثت بها... لن أتخلى عن لغتى، ولا أزال أتحدثها. "

لقد داعبنا الأمل في تشجيع فاسيا على نشر نظامه الكتابي في المجتمع، لذا فقد وافقنا على طلب من المجلس القبلي للأس لإنتاج كتاب قصصي. وأوكلنا لأطفال الأس، والذين لا يتحدث أى منهم هذه اللغة، مهمة وضع الرسوم التوضيحية المصاحبة للقصص. لقد تمخضت مجهودات أطفال الأس، علاوة على نظام الكتابة الرائع عند فاسيا، عن إنتاج أول كتاب بلغة الأس على الإطلاق. في حين تضعف الآمال أن تنتعش الأس مرة أخرى وتنتقل إلى جيل آخر، يشهد هذا الكتاب الأول (وربما يكون الأخير على الإطلاق) بحب الإنسان للغته وعزمه ألا تغيب حتى وإن بذل من أجل بقائها الغالي والنفيس.

لمحات من قبل التاريخ

رغم سعادتي العارمة برؤية النظام الكتابي لفاسيا إلا أنه اختفت من الوجود أشياء عديدة في لغة الأس، تمنيت أن لو كانت باقية. كنت أود، مثلاً، أن أجمع حكايات عن الطقوس الدينية. فمثل كل الشعوب السيبيرية، كان يُعتقد أن الأس قد مارسوا مذهب الأرواحية animism وهى مذهب ديني يقوم على الاعتقاد بأن الأرواح تسكن الأشياء والأماكن وأنه ينبغي استرضاؤها. ترسم المعتقدات الأرواحية دائماً صورةً كاملةً للكون تحتوي على طبقات متعددة لعالم تسكنه مخلوقات مختلفة متفاوتة القوى. في كثير من تلك المجتمعات يمكن لممارسين خاصين وهم الشامانيين أن يتوسطوا بين عالمي الغيب والشهادة.

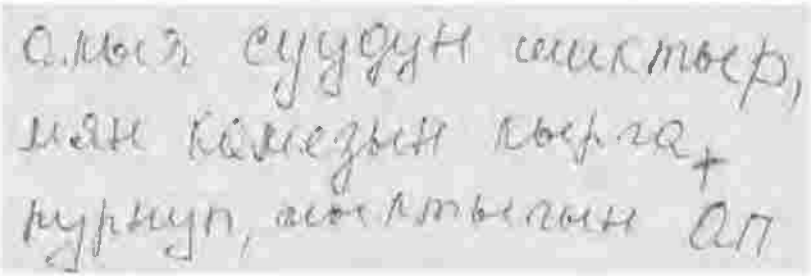

الشكل رقم (٥,٤). جزء من أول نص باق كتبه فاسيا جابوف بكتابته المحلية الأسية الخاصة في ٢٠٠٣م. "خرج الموظ (حيوان ضخم من الايائل " المترجم") moose من الماء، فأخذت قـاربي إلى الشاطىء واستللت مسدسي..."

كما نعرف من المصادر التاريخية فإن الأس لـديهم، بالفعـل، شـامانيون مارسـوا الأرواحية. عنـدما زار المستكـشف السويدي يوهـان فالـك Johan Falck الأس في عـام ١٧٨٦م، لاحظ أنهم كانوا يُعمَّدون بالقوة ولكنهم كانوا من أنصاف المعتنقين. يقـول المستكشف: " في عام ١٧٢٠م، عمَّد كبير أساقفة توبولسك Tobolsk... تقريباً كافة التشوليم Chulym دون كثير من الجلبة... غير أنه لا يـزال لـديهم الكـثير من الخرافـات الشامانية وهـم جهـلاء بالـدين (المسيحي) حتى أنك لا تعـرف أنهـم مسيحيون إلا بمـا يعلقونه من صلبان" (١٤).

وفق ماتوافر لدينا من معرفة، لم تسجل، إطلاقاً، أية ترانيم شامانية عند الأس ولا تعاويذ ولا طقوس. فرد واحد فقـط مـن أفـراد المجتمـع هـو الـذي شـاهد الـشامانيين يعالجون الناس في الاحتفالات التراثية وهـي فارفـارا بوديفـا Varvara Budeyeva والـتي كانت تبلغ من العمر ٩٢ عاماً حينما قابلناها في عام ٢٠٠٣م وتوفيت بعد ذلك. كانـت فارفارا تصف الطقـس الـديني للـشاماني للبـاحثين الروسـيين الزائـرين في عـام ١٩٧٢م. لقد كان مجرد الحديث عـن هـذا الطقـس الـديني عمـلاً شـجاعاً، فقـد كانـت التعبيرات

الدينية يُنظر إليها شزراً في المجتمع السوفيتي، وتحت حكم ستالين تم قمع الشمانيين بقسوة خلال الخمسينيات والستينيات.

حينما كانت فارفارا تتكلم بسعادة عن الشامانيين، سجل الباحثون ذلك بأمانة في كتبهم. ظل حديثها خامداً لثلاثة عقود في سجلات الجامعة المحلية. ترى قصة فارفارا الآن الضوء للمرة الأولى، كآخر دليل حي عن الطقوس الشامانية التي أضحت الآن في طي النسيان بين قبيلة الأس. مايلي هو الترجمة الإنجليزية لحديث فارفارا:

عندما تقوم الشامانية بعملها الروحي يوجد بجانبها طبق مليء باللحم وثلاث لترات من الكحول.

وحول عنقها يتدلى تسعة عشر عقداً من الخرز وتربط حول رأسها غطاء أبيض.

تمسك في يديها اثنتى عشرة حلقة وتضرب عليها بملعقة خشبية.

ثم تأخذ الملعقة وتمارس بها طقوسها الروحية.

إذا سقطت الملعقة الخشبية وجانبها الأيمن للأعلى فهذا فأل حسن.

إذا سقطت الملعقة مقلوبة فهذا نذير شؤم[١٥].

إن هذا الحديث الذي يأتى من مصدره الأول إنما هو لمحة من الماضي لما قبل التاريخ، قد يكون الحديث الوحيد الذي نسمعه، لمحة من طقس ديني أصبح الآن لا وجود له. لا يعرف أُسي واحد على قيد الحياة كيف يتم أداء هذا الطقس. وحين سجل هذا النص في البداية في عام ١٩٧٢م، لم يكن هناك سوى شخص واحد أو شخصين شاهدا طقساً دينياً كهذا. يبدو أن الأس اليوم ماضون في حياتهم دون ديانتهم الأرواحية التراثية، فاعتنق بعضهم المسيحية الكاثوليكية، ولكن مع فقد كافة الأديان يفقد الناس جزءًا من تراثهم وبذا يفقد علماء الدين والثقافة جزءاً من مجال دراستهم.

وإذا علمنا أن كثيراً من تاريخ العالم يكمن في إحلال عقيدة محل أخرى ينبغي

إذن أن نتعامل بحساسية مع ما يحدث من فقدان مأساوي لمزيد من الأديان والرؤى المختلفة للعالم حين تموت اللغة. وفي حين تقترب ديانات الشعوب الأصلية من نقطة التلاشي بسبب التحول اللغوي، قد يكون أفضل ما يمكن أن نفعله هو أن نكتب النصوص أو الروايات المباشرة لما كان يمارسه الناس يوماً وكيف كانوا يتحدثون مع آلهتهم أو عنها.

ما هي فائدة الكتب ؟

لماذا نضع الكتب لأناس لا يستطيعون قراءتها وتمضي لغتهم، على أي حال، في طريقها للانقراض؟[١٦] لقد كنت أتساءل عن هذا الأمر بعد اجتماعنا مع المجلس القبلي للأس في ٢٠٠٣م. من بين أعضاء المجلس الثمانية، لم يكن يتحدث لغة الأس، بطلاقة، سوى فرد واحد، بينما كان لدى اثنين من الأعضاء معرفة ضمنية بتلك اللغة (يمكنهم فهم المحادثة ولكن لا يتحدثون). لم يدَّع الخمسة الآخرون أي معرفة بالأس على الإطلاق، غير أن الأمل كان يحدوهم في أن يعزز إنتاج الكتاب القصصي مكانة لغتهم، وربما يساعد في إحيائها. وكنا، صديقي جريج أندرسون وأنا، نرى، بعد أن عملنا في كثير من مجتمعات اللغات المعرضة لخطر الانقراض، أن هذا السيناريو الأخير، سيناريو إحياء اللغة، بعيد الاحتمال غير أننا عبرنا عن دعمنا للفكرة على أية حال.

توشك لغة الأس على الاحتضار وليس لها من أبنائها من يتحدثها. إن فاسيا جابوف والبالغ من العمر ٥٥ عاماً هو أصغر متحدث طلق باللغة. وحتى المتحدثين باللغة الأكبر سناً والذين يمتلكون الطلاقة اللغوية للحديث بها و يعيشون جنباً إلى جنب في القرى نادراً ما يتحدثون بها مع بعضهم البعض. لم نجد سوى بيت واحد يستخدم فيه الزوج والزوجة لغة الأس مع بعضهما البعض (انظرالشكل رقم ١.١

الفصل الأول). إن الجيل الأصغر والذي تربى على الخزي العرقي يظهر عدم الاكتراث بمعرفة الأس. ربما تحتاج لغة الأس إلى تضافر معجز في الأحداث حتى تصبح مرة أخرى لغة حية تستخدم في الاتصال اليومي. لقد علق فاسيا على هذا الأمر قائلاً "سوف تصبح الأمور في غاية الصعوبة، غير أنني أعتقد أنه من الممكن إصلاح الأمر."

الكتابة والمعرفة

إن وضع كل أصوات اللغة على شكل حروف كتابية يعد مهمة غاية في التعقيد. حينما يخترع متحدثو اللغة غير المدربين أنظمة "ساذجة" للكتابة فإن الاختيارات التي يلجأون إلى استعمالها تعطى العلماء تصوراً لسيكولوجية اللغة. فعند علماء المعرفة، تعد هذه الأنظمة المعرفية معملاً طبيعياً لدراسة كيفية إدراك العقل البشري للأصوات الكلامية وأوجه الشبه والاختلافات بين الأصوات وغيرها من التراكيب اللغوية. سوف أعطي مثالين مختصرين للكيفية التي يمكن بها لأنظمة الكتابة أن تلقي الضوء على ما يحدث في العقل حينما تتم ترجمة الكلام إلى رموز مكتوبة.

حين اخترع فاسيا جابوف كتابة الأس، كان عليه أن يعرف كيف يمثل كتابة ثلاث صوائت vowels في لغة الأس لا توجد في اللغة الروسية. الصائت الأول وهو صوت "a" كما في كلمة "apple" والذين يصنفونه العلماء على أنه صوت أمامي منخفض low front، نظراً لأن اللسان يندفع لأسفل وللأمام في الفم. والصائتان الآخران لا يوجدان في اللغة الإنجليزية غير أنهما يشبهان الصوت الألماني "ü" كما هو متمثل في كلمة kühl (والتي تعني بالإنجليزية cool 'بارد')، والصائت ö في الألمانية كما هو متمثل في كلمة schön (والتي تعني بالإنجليزية beautiful 'جميل'). ويسمى اللغويون هذين الصوتين الأخيرين أصواتاً أمامية مدورة front rounded، إذ إن اللسان يندفع بعيداً في اتجاه الجزء الأمامي من الفم بينما تأخذ الشفاه وضع الدوران. كان يمكن لفاسيا

أن يفعل ما يفعله اللغويون المدربون بأن يخترع رموزاً جديدة لهذه الأصوات المميزة غير أن هذا يعتبر أمراً محفوفاً بالمخاطر، فالذين يعرفون كيف يقرءون ويكتبون بالروسية كان يمكن أن يرفضوا استخدام حروف غير مألوفة وربما أدى ذلك إلى تثبيط الحماس تجاه نظام الكتابة الجديد.

Алыч

Артян туруп, кун гарагы шикпанча,
мян мылтыгын ап чердюпскем кольге.
Кольдя мен камям полган.
Камя олуруп амьда парыдым.

* * *

Лось — Я утром стал, до восхода солнца, взял своё ружьё и отправился к озеру. У озера был обласок мой. Я сел в обласок и отшвартовался.

Moose — 'I got up in the morning before the sun rose, took my gun and set off to the lake. My boat was at the lake, I sat in my boat and set off.'

الشكل رقم (٥,٥). أول كتاب ينشر بلغة الأس (٢٠٠٥). تحكي هذه القصة عن صيد الموظ وقد رواها فاسيا جابوف، وترجمتها إلى الروسية والإنجليزية مع اللغوي جريج أندرسون. إهداء من معهد الألسنة الحية للغات المعرضة لخطر الانقراض.

الحل الآخر لهذا الأمر كان يمكن أن يكون مثل حالة الأبجدية الإنجليزية، حيث يستخدم رمز حرف صائتي واحد لأكثر من صوت. فكلمة fat (بدين) وكلمة father

(أب)، على سبيل المثال، تحتويان على نفس الحرف "a" ولكن تنطقان بصورة مختلفة. فكلمة fat تحتوى على نفس الصوت الموجود في كلمة cat، بينما a في كلمة father تحتوى على نفس الصوت المتمثل بالحرف o في كلمة bother. فنظام الكتابة في اللغة الإنجليزية غير متقن في تمثيله للأصوات. وهناك في الإنجليزية بعض الحالات الشاذة التي يجب حفظها ولهذا السبب فإن مسابقات التهجي تعتبر نوعاً من التحدى. لذا فالحل على الطريقة الإنجليزية (حرف واحد يمثل عدة أصوات) ربما كان غير مرغوب فيه في حالة الأس، ورفضه فاسيا جابوف بحكمة.

أتى فاسيا، بدلاً من ذلك، بحل ذكي وذلك باستعمال وسائل متاحة له بالفعل في الأبجدية الروسية. فالروسية لها حرف خاص يسمى "العلامة اللينة" soft sign والذي يخبرك بأن تضيف صوت y (كمثل الذي تجده في بداية الكلمة الإنجليزية yes) بعد الصوت الصامت consonant. على سبيل المثال، يمكن في الروسية أن تقول la (تنطق "لا") ولكن يمكنك أن تضيف العلامة اللينة فتنطق الكلمة lya "ليا". من المهم أن تلاحظ هنا أن صوت "y" ليس من أصوات الصوائت، إنه أحد الأصوات التي يسميها اللغويون الأصوات الإنزلاقية الحنكية palatal glide، فيضاف "y" إلى صوت "l" كي تجعله صوتاً متمايزاً في الروسية وإن كان يشبه في نطقه صوت "l" الطبيعي.

تفتقد لغة الأس على العكس من اللغة الروسية الأصوات الصوامت الحنكية palatalized consonants، لذا فإن العلامة اللينة، ليس لها فائدة. ولكن لاحظ فاسيا أن حركة اللسان في نطق "y" تشبه إلى حد كبير حركة اللسان المطلوبة لإنتاج الصوائت الثلاثة الخاصة. فصوت "y" بالإضافة إلى الصوائت يحتاج من اللسان إلى أن يندفع إلى موضع أمامي في الفم، غالباً إلى النقطة التي يصطدم فيها اللسان بالحنك.

لا يدرك معظم الناس ما الذي يقوم به اللسان حينما ينتج الأصوات الصوائت.

يتطلب ذلك، في واقع الأمر، تدريباً احترافياً على يد عالم في الأصوات phonetician أو معالج للنطق Speech therapist حتى نصبح مدركين لحركات اللسان التي تحرك أصوات معينة. فقد تعلمنا في الصغر أن ننطق الكلمات عن طريق البأبأة babbling ولم نفكر في كيفية عمل ذلك على الإطلاق على نحو واعٍ. لقد فهم فاسيا ذلك بنفسه ودون مساعدة احترافية ونسج هذا الحل في داخل نظامه الكتابي نسجاً مبدعاً لم يكن ليخطر ببال لغوي محترف[١٧].

في نظامه الكتابي، وضع فاسيا العلامة اللينة والتي تشير للمتحدث أن يدفع لسانه للأمام بعد الصامت الأول والذي يلي مباشرة واحداً من الصوائت الخاصة الثلاث. وقرر فاسيا أيضاً، على سبيل الاختصار، أن يضع علامة لينة واحدة في كل كلمة. ونظراً لأن لغة الأس تراعي قاعدة الانسجام الصائتي vowel harmony والتي تتطلب أن تنطق كل الصوائت في الكلمة إما في وضع أمامي في مقدمة الفم، أو في وضع خلفي، فلا حاجة إلا لعلامة ناعمة واحدة لكي تعطي إشارة للناطقين كي يعرفوا إن كانت كل الصوائت بالكلمة تنطق في الجزء الأمامي من الفم أم لا. إن الشيء الذي أدهش علماء اللغة هو أن فاسيا اكتشف خبايا موضع اللسان عند النطق ونظام الانسجام الصائتي دون تدريب احترافي، ثم طبق نظامه الكتابي على كلا الأمرين تطبيقاً متقناً.

حتى تحيا، كن في الذاكرة

ربما تمتلك الثقافة الشفهية أيضاً مفاتيح لفهم كيفية عمل الذاكرة. حتى ينتقل شيء ما يجب أن يحتفظ به في الذاكرة. يمكننا أن نرى تنوع الفنون اللفظية الإنسانية كنوع من أنواع البقاء للأصلح. دعنا نأخذ أمثلة من الثقافة الأمريكية. الأشكال الكلامية ككلمات موسيقى الراب rap والأغاني والقصائد الفكاهية الخماسية limerick

والنكات وقصص الأشباح وقوافي عد الحجله hopscotch counting rhymes وأناشيد فتيات التشجيع الرياضي cheerleader chants غالباً لا تدون في شكل كتابة. فتنتقل هذه الاشكال بصورة الإلقاء الشفهي والحفظ بين الشباب. ولكي تحيا الأنواع الكلامية speech genres وتنتقل عبر أجيال متتالية في ثقافة ما ينبغي لتلك الأشكال أن تمنح الذاكرة معاليق hooks ميسرة لكي تلتصق بها. فالأنواع الكلامية التي يصعب حفظها لن تحيا طويلاً إلا إذا تم تدوينها. لا تعد الكتابة في الثقافة غير الكتابية خياراً مطروحاً، لذا فإن كافة أشكال الكلام اللفظي ينبغي أن تيسر سهولة الحفظ.

الشكل رقم (٥,٦). تستخدم كتابة قاسيا جايوف البسيطة للغة الأمس "العلامة اللينة" الروسية {ь} للإشارة الى أنواع النطق البديل للصائت.

العلامة b تعطي مؤشراً للقارئ كي يدفع لسانه في اتجاه مقدمة الفم كي يحول نطق الصائتين في الكلمة، مع الإبقاء على نطق الأحرف الأخرى دون تغيير، وفق الجدول التالي:

"t" تنطق في هذه الكلمة كما في كلمة "tow"

"o" كما في كلمة "show" ← "ö" كما في كلمة "schön" بالألمانية

"g" تنطق في هذه الكلمة كما في كلمة "bag"

"a" كما في كلمة "father" ← "a" كما في كلمة "apple"

إن الفنون اللفظية التي تنحدر إلينا من خلال الثقافات الشفهية حصرياً تشبه الصخور المشذبة بشكل أنيق.[١٨] شُذِّبت في تلك الصخور كل الحواف الوعرة بعد أن انتقلت من عقل إلى آخر ومن جيل إلى آخر، فمرت بمراحل النقل والتكرار والحفظ. ما بقي منها هو الجوهر الأساس، جوهر جيد التهذيب ومناسب تماماً لمجاله الذي وضع له (وهو الذاكرة الإنسانية). لقد اكتشف علماء الملاحم الشفهية كيف نجحت أشكال الفن اللفظي في أن تبقى في الذاكرة وكيف انتقلت، وبيَّن العلماء كذلك أن أعمالاً، كعمل هومر "الإلياذة" Iliad، تكيفت بصورة كبيرة مع مقتضيات النقل الشفهي والذاكرة الإنسانية[١٩].

لكل اللغات طرائقها في التفنن المحترف بالكلمات والذي نعرف بعض أشكاله، كالشعر، غير أن هذا التفنن الكلامي لم تطله يد التدوين في معظم اللغات. فاللغات تستخدم استراتيجيات مختلفة لصياغة الشعر بصورة تجعله يبقى في الذاكرة مع غياب الكتابة. لقد اعتدنا في التقاليد الغربية، عند صياغة القصيدة، على اعتبار القافية أفضل الوسائل في معاونة الذاكرة، كما نرى ذلك، مثلاً، في البيت المقفى: The rain in Spain stays mainly in the plain "الرمال في أسبانيا تبقى غالباً في السهل".[٢٠]

ثمة إستراتيجية ثانية شائعة في معاييرنا الأدبية الغربية، ألا وهي معيار الوزن الشعرى meter، لاسيما التبادل الإيقاعي بين المقاطع المنبورة وغير المنبورة. ونحن نسمع هذا الإيقاع في نغمة الساحرات في مسرحية ماكبث Macbeth لوليام شكسبير (المقاطع المنبورة مكتوبة بالأحرف الكبيرة)

"ROUND and ROUND the CAULDron GO; IN the POIsoned
ENtrails THROW

LIZard's LEG، ... ADder's FORK and BLIND-worm's STING
and HOWlet's WING"

"يدور المرجل ويدور ويدور، وفي الأحشاء المسممة، اقذف لسان الأفعى ومِخَزّ دودوة عمياء وقدم السحلية وجناح البومة".

بينما تنجح هذه الوسائل نجاحاً كبيراً في اللغة الإنجليزية، هناك كثير من لغات العالم لا تعبأ بالقافية ولا بالوزن.

ومع هذا فإن هذه اللغات قد يكون لها تراث شعري شفهي ثري يستخدم مجموعة من الإستراتيجيات المختلفة التي تعين الذاكرة. فلغات مثل التوفان، على سبيل المثال، تفتقر إلى القافية بصورة شبه كاملة. ولكن، كيف يمكن للغة أن تفتقر إلى القافية؟ عند بناء الكلمات في التوفان أنت تضيف لواحق suffixes ، ونظراً لوجود مجموعة محدودة من اللواحق فمن اليسير (وغير الجذاب) أن تجعل الكلمات تقفى، فيسهل مثلاً أن تضع قافية بين bar-gan "ذهب" و al-gan "أخذ" أو ur-gan "رفع". تنتهي هذه الكلمات بقافية واحدة بصورة تلقائية مع لاحقة الزمن الماضي الملتصقة gan-.إذن، كما نرى، في حين أن التقفية ليست بالأمر العسير في التوفان، فإن ذلك لا يعد تحدياً إبداعياً لأي شاعر ولا نمطاً فريداً للذاكرة. ببساطة، تعد القافية، وفق بعض اللغات، أمراً غير شعري ولا يسهل تذكره، لذا يجب البحث عن بعض الأنماط البارزة من الناحية المعرفية.

وفوق ذلك، لا تستعمل لغة التوفان الإيقاع أو الوزن؛ نظراً لأن هذه اللغة ليس لديها إلا نيرٌ خفيفٌ جداً very light stress، على النقيض من الأبيات التي أوردناها من ماكبث، حيث يكون النبر غاية في العلو على المقاطع المشددة. فلا يظهر النبر التوفاني إلا على المقطع الأخير للكلمة. لذا لا يمكن للنبر أيضاً أن يخلق إبداعاً أو ييسر الحفظ. من أجل أن تنظم لغة التوفان شعراً، ينبغي عليها، مثل العديد من اللغات الصغيرة الأخرى، أن تيمم وجهها إلى ما وراء القافية والوزن. يستخدم الشعراء التوفانيون إستراتيجيات معرفية مثل الجناس الاستهلالي alliteration (تكرار نفس الأحرف الأولى من الكلمات والعبارات) والمماثلة الصائتية (تشاكل الصوائت) assonance، التوازي التركيبي parallelism (أي تكرار كلمات و عبارات). تبرز كل معاليق الذاكرة القوية الثلاث هذه في الأعمال الشعرية التوفانية.

تقودنا دراسة التقاليد الشفهية في اللغات الصغيرة، لاسيما تلك التي لم تكن جزءً من معايير الدراسات الأدبية في الجامعات وفي المدارس الثانوية، جزءًا إلى إعادة النظر في أفكارنا عن الشعر والذاكرة. فما نعتبره شعراً قد يكون أمراً مختلفاً تمام الاختلاف في لغة الأينو والتوفان أو الماكه Makah، وقد لا يمت بأي صلة على الإطلاق مع ما توارثناه من مفاهيم حول ماهية الشعر.

إن ما نتوقع أن يكون مشتركاً بين كل هذه التقاليد المتوارثة هو مجموعة الوسائل الناجعة التي تيسر الحفظ وموهبة التفنن بالتراكيب الدقيقة للصوت والمعنى. فنجد أن هناك أعمالاً شفهية رائعة استطاعت أن تعيش رغم اختبار الزمن القاسي، كي تظهر لنا كدرر كلامية لامعة. تقدم لنا هذه الأعمال نظرات عميقة حول كيفية عمل الذاكرة الإنسانية. كما تخبرنا تلك الأعمال، كذلك، عن أنواع الحيل العقلية التي تنجح في اجتياز اختبار النسيان، إذ أن نجاح بعض إستراتيجيات الذاكرة لا يقاس أحياناً إلا ببقاء أشكال الفنون اللفظية المستخدمة. وكما يرى العالم الأنثربولوجي "براد شور" Brad Shore : " تواءمت الأشكال الشفهية التراثية تواؤماً جيداً مع المتطلبات المعرفية للحفظ بالذاكرة والنقل" [٢١]. ومع أن كل البشر يشتركون في نفس وسيلة الذاكرة وهي المخ، إلا أن طبيعة التكيف المعرفي cognitive fine-tuning الذي نراه في الشعر يختلف شكله باختلاف اللغة الإنسانية.

تراثنا الثقافي المتلاشي

حين تخرج بعض اللغات من دائرة الاستعمال وتذهب إلى مجاهل النسيان، ينزلق كثير من أنواع الفنون الشفهية الكاملة كالقصص والأغاني والملاحم سريعاً إلى حافة الانقراض دون أن يدون منها إلا النذر اليسير. ولن تظهر الحكايات المدونة في الكتب عندما يتوقف الحديث بها إلا كأشباح لفنون كانت يوماً ملء السمع والبصر.

إننا نوشك أن نفقد مجلدات كاملة من الرؤى الكلية للعالم والمعتقدات الدينية وأساطير الخلق والملاحظات حول الحياة وتقنيات تدجين الحيوانات وزراعة النباتات وتواريخ الهجرات والاستيطان البشري والحكمة الجماعية. سوف نفقد الرؤية العميقة حول كيفية تهيئة البشر للذاكرة حتى تنجح في الاحتفاظ بالحكايات الملحمية ونقلها.

في عالمنا المسمى بعصر المعلومات information age، غالباً ما تكون المعرفة عميقة ولكنها ضيقة. فيمكن لك، في الجامعات الأمريكية، أن تسجل مقررات دراسية كاملة مخصصة لأعمال كاتب واحد أو حتى عمل واحد، مثل ذلك المقرر الذي يقتصر على دراسة "حكايات كانتربري" Canterbury tales. إنه لمن المثير للسخرية، إذن، أن تعاني الحكمة الجماعية لمجتمعات بشرية كاملة من قلة الاكتراث بها من جانب ممن لا ينتمون لتلك المجتمعات، ومن عدم استخدام أصحاب تلك الثقافات لها، ومن نقص اهتمام أطفالها بها.

يتطلب الأمر إنفاق قدر من المال و الكثير من الوقت والجهد للبدء في تدوين اللغات الصغيرة وفنونها القصصية. وتلك المهمة قابلة للإنجاز وتستحق الاهتمام العاجل منا. تخيل أن هناك مقرراً دراسياً في جامعة أمريكية حول علم الحشرات عند الكايابو Kayapó، ومقرراً آخر حول الحكايات الملحمية التوفانية وآخر حول الرياضيات عند البابوا Papuan mathematics. إننا لا نعرف قيمة ما نفقده حينما يصير هذا التراث الفني خارج دائرة الاستخدام لعدم تدوينه. إننا نفشل فشلاً عبثياً كعلماء أو كمحبين للإنسانية عندما لانستطيع استجلاء الصورة الكلية في زخم التفاصيل. إن تخطينا الحيازنا للكتب المدونة وتذوقنا إبداع الثقافات الشفهية المحضة وجمالها فإننا بذلك نفتح نافذة على الآفاق الرحبة في العالم ومكانة الإنسان فيه. ولكن هذا الباب ، الذي لا يزال مواربا أثناء كتابة هذا العمل في ٢٠٠٦م، سرعان ما سينغلق وسوف نحرم من آفاق واسعة من الإبداع الإنساني وإلى الأبد.

هوامش الفصل الخامس: قصاصون صامتون و أساطير مفقودة

(١) الحكاية الملحمية عن التوفان كما حكاها السيد شوديالك أول خابيلاكوفتش خوفاليج Shoydak-ool Khapylakovich Khovalyg (ولد في ١٩٢٩م) في ١٩٩٨م. وقد قمت بتسجيلها وكتابتها صوتياً وترجمتها بمعاونة المتحدثين التوفانيين الأصليين. انظر هاريسون (Harrison، ٢٠٠٥م) حيث توجد الحكاية كاملة بعنوان بوكتوكيريش Boktu-Kiriš، وبورا-شيلي BoraŠeelei مع الترجمة والحواشي التفسيرية. ويمكن مشاهدة لقطة فيديو لهذه الحكاية على الموقع http://tuvan.swarthmore.edu.

(٢) القصص التراثية التوفانية. لمعاينة بعض الأمثلة والمناقشات الممتازة (بالروسية) انظر سامدان (Samdan، ١٩٩٤ م). انظر تاوبي، ١٩٧٨م، لمعاينة مجموعة من الحكايات الشعبية التوفانية مترجمة من اللغة التوفانية إلى الألمانية. انظر فان دويزن (Van Deusen، ١٩٩٦ م) لمعاينة مجموعة من الحكايات الشعبية التوفانية مترجمة من الروسية ومعاد حكيها بالإنجليزية. انظر رايتشل (Reichl، ٢٠٠٣ م) حول الجوانب الشعائرية للتقاليد الملحمية الشفهية التركية.

(٣) الحكايات الملحمية التوفانية في كتب، أوروس- أول Orus-ool، ١٩٩٧م .

(٤) الأدب الشفهي كشكل متحجر، داونهاور وداونهاور (Dauenhauer and Dauenhauer، ١٩٩٥ ، القسم الرابع أرقام الصفحات غير موجودة في الأصل) ، انظر داونهاور وداونهاور، (١٩٩٠م) ، حيث توجد مجموعة متميزة من الأدب الشفهي في التلنجت.

(٥) لقد مكنهم ما لديهم من أنواع للأداء الشفهي وقدرتهم الفائقة على الحفظ، بالطبع، كذلك، من التواجد في المجتمعات التي تجيد القراءة و الكتابة. انظر ييتس (Yeats، ١٩٦٦م) للحصول على سجل لهذه الأنواع في الثقافات الرومانية والعصور الوسطى وعصر النهضة.

(٦) عدد اللغات التي تمتلك نظاما للكتابة (أونج Ong، ١٩٨٢م) ، (أدموندسن Edmondson، ١٩٧١ م).

(٧) فرضيات الكتابة (بك Buck ١٩٩٣ م، ص ١٢٢).

(٨) الثقافات الشفهية الأولية (أونج Ong، ١٩٨٢ م).

(٩) ثقافة البتانجان في الفلبين (كيكوتشي Kikuchi، ١٩٨٤م، ص ٢٩).

(١٠) القراءة والكتابة في العالم (البنك الدولي، ٢٠٠٤ م).

(١١) القراءة والكتابة في الهند (مركز المعلومات القومي، ٢٠٠٥ م).

(١٢) "القراءة والكتابة هي الحرية" شعار عِقد القراءة والكتابة التابع لليونسكو United Nations Literacy Decade (اليونيسكو، ٢٠٠٥ م).

(١٣) الكتابة في لغة الأس. للحصول على معلومات فنية إضافية وعينات من الكتابة، راجع هاريسون واندرسون (Harrison and Anderson، ٢٠٠٣ م)، واندرسون وهاريسون (٢٠٠٦ م).لمناقشة رائعة حول آثار القراءة والكتابة والتهجي على تهديد اللغات بالانقراض وإعادة إحيائها ؛ انظر جرينوبل وويلي (Grenoble and Whaley، ٢٠٠٦ م الفصلين ٥، ٦)، وأيضاً هنتون (Hinton، ٢٠٠١م ب).

(١٤) مسيحية التشوليم. فالك (١٧٨٥ ،١٧٨٦، ص ٥٥٧) ، ترجمة روبى هارت وستيفن هولت (Robbie Hart and Steven Holt، ٢٠٠٤م).

(١٥) قصة شاماني الأس. أندرسون وهاريسون (Anderson and Harrison، ٢٠٠٤ م) النص الأصلي مأخوذ من أرشيف معمل لغات القبائل السيبيرية The Laboratory of the Languages of the Siberian peoples الجامعة التربوية لولاية تومسك Tomsk State Pedagogical University. تم تجميع وكتابة النص في ١٩٧٢ م، وهو يظهر في كتاب الملاحظات الذي ألفه ر. ا. بيتشيورسكاي R.A.Pechjorskajal، و ر. أ. بوني RA- Boni ور.م. بريوكوفيتش R.M. Birjukovich و أ. ب. دولزون A.P. Dulzon. قمت أنا و جريجوري أندرسون Gregory Anderson بإجراء مقابلة مع ف. بوديفا Budeyeva في يوليو ٢٠٠٣ م في الوقت الذي كان فيه المخرجان سيث كرامر Seth Krammer ودانيل ميلر Daniel Miller يقومان بأخذ لقطات فيديو. لم نكن قادرين على أخذ لقطات أخرى من قصة الشامان نظراً لتقدم سن الشامان واعتلال صحته. فقمنا بإعادة تنقيح نسخة عام ١٩٧٢م المحفوظة للقصة وترجمناها إلى الإنجليزية وكان ذلك بمعاونة أفراد من مجتمع الأس. لا تتعلق حقوق الطبع في هذا إلا بترجمتنا الإنجليزية فقط. يعتبر نص الأس الأصلي ملكية فكرية ل ف. بوديفا نفسها ولمجتمع الأس وقد تم اعادة إنتاجه بموافقتهم.

(١٦) لماذا نضع كتاباً لأناس لا يقرأون؟ كان أول من طرح السؤال هو تيرل Terril، (٢٠٠٢ م).

(١٧) لمناقشة إدخال أنظمة الكتابة الجديدة (والتي غالبا ما يقوم بتصميمها اللغويون) إلى اللغات المهددة، انظر هنتون (Hinton، ٢٠٠١ م ب).

(١٨) الحفظ. لمناقشة متميزة حول كيفية إفادة الذاكرة للتقاليد الشفهية (بما في ذلك استعارة "الحجر المصقول") انظر روبن (Rubin، ١٩٩٥م).

(١٩) الأنواع الشفهية محورة بصورة كبيرة. شور(Shore ١٩٩٦م، ص ١٤٠). راجع هافلوك (Havelock، ١٩٨٢م) حول شعر هومر.

(٢٠) 'Rain in Spain' "مطر في أسبانيا" : مأخوذة من سيدتي الجميلة My Fair Lady لليرنر ولو (Lerner and lowe ، ١٩٦٥م).

(٢١) الأنواع مولفة توليفاً جيداً، شور(Shore ١٩٩٦م ، ص ١٤٠).

الأرز الجديد في مقابل المعرفة القديمة

New Rice Versus Old Knowledge

لقد جاءت أيام حصاد الأرز في قرية باينينان Bayninan الصغيرة وهي قرية في منطقة جبال لوزون Luzon ، أكبر جزر الفلبين. إنني أجلس في فضاء القرية تحت ظلال منزل معروش بالقش يقوم على قوائم خشبية وأتمتع بالظل وبيرة الأرز المتخمرة ورائحة الخنزير المطهي والأرز.

بجواري يجلس السيد باجووون Pūgguwon ، وهو شاماني تقليدي لقبيلة الإيفوجاو Ifugao (يتحدث لغة الأيفوجاو حوالى ١٦٧,٠٠٠ شخصاً). يرتدي الشاماني ، الذي يفترش الأرض ، مئزراً وتلفيعة حمراء لامعة ، ويترنم بصوت غنائي متمايلاً للخلف والأمام. أبدأ في الشعور بالدوار من الترنيم وبيرة الأرز التي شربتها.

لا تقوم الأسرة المضيفة بالحصاد بنفسها ، فقد استأجرت عمالاً نهاريين يعملون مقابل وجبة غذاء من لحم الخنزير والأرز وحوالي دولاراً واحداً. يعيش رب الأسرة حالياً وهو شاب في السادسة والعشرين في البلدة القريبة ولا يزور أمه العجوز إلا في الأوقات المهمة مثل موسم زراعة الأرز وحصاده. إنها تعيش بمفردها ، ترعى حقول الأرز للأسرة. يشرح ابنها لي الموقف بإنجليزية معقولة

متحدثاً عن خططه لتعلم الحاسب ومتابعة مستقبله المهني في المدينة قائلاً "لم يعد أحد يريد أن يعمل مزارعاً للأرز".

شاب من الإيفوجاو يحمل حزم من الأرز الذي تم حصده حديثاً إلى المطحنة، ٢٠٠١ م.
تصوير: ك. ديفيد هاريسون.

تجلس أمه المسنَّة، الهادئة المنحنية الظهر، وهي ترنو إلى حقول الأرز الخاصة بأسرتها (الصورة رقم ١,٦). إن لحقول الأرز قدسية في هذه البقاع، فهي تورَّث من فرد لآخر وهي موضوع للعديد من الطقوس والمناسبات الدينية. لقد وجهت الأسرة الدعوة للسيد باجوون Pūgguwon، شاماني البلدة لكي يقدم دجاجة كقربان، ويصفي دمها في طبق خشبي ثم يقرأ أحشاءها مستوحياً منها الطالع لعام وموسم ومحصول ميمون. وبعد أن قدم الشاماني القربان، بدأ يتلو عليهم نسب العائلة وهو عمل

ضروري لاستحضار عالم أرواح الأجداد الراحلين كي يباركوا نجاح المحصول.

يطأ الشباب والصبية دائرة محددة في حقول الأرز من أسفل الجندل إلى الأعلى في فناء الدار وهم يحملون عصيًّا خشبية محمل عليها لفافات من الأرز. ويحمل كل عصى قرابة ثمانين رجلاً، بينما تترك أقدام الصبية العارية آثاراً عميقة في الطين. ويحمل الأطفال الصغار لفافات من الأرز على رؤوسهم ويستريحون من وقت لآخر طلباً للعب والمرح.

وفي الأسفل، في الحقول المستنقعة، تحصد النساء الأرز كما جرت العادة لقرون. يحصدون باليد وبشفرات معدنية صغيرة. وتتقدم النساء ببطء في داخل الحقل وقد غمرت أقدامهن بالطين في الماء العكر حتى الكاحل. يطلق النساء همهمات الأغاني من آن لآخر وهن منهمكات في العمل. لقد جرت العادة أن تنشد النساء أغنية ملحمية، وهي أغنية الهَدهَد hud-hud، أثناء حصاد الأرز. لم تعد الهدهد تنشد في السنوات الأخيرة ولم يتبق منها في الوقت الحاضر إلا شذرات قد تنسى في التو في الوقت الذي بدأت فيه الإذاعة المسموعة والمرئية تلعب دوراً أكثر أهمية في الحياة الريفية للفلبين.

بعيداً، على مسافة من النساء الحاصدات، تكافح امرأة بمفردها، ألا وهي منتقية البذور seed selector، وهي متدربة منذ نعومة أظفارها على معرفة الأرز. عند الحصاد يحرم على هذه المرأة بعض الأطعمة والاتصالات الاجتماعية وأنشطة أخرى. ففي حين تسير النساء في الحقل يحصدن عيدان الأرز باليد تتحرك منتقية البذور أمامهم كي تجمع أفضل البذور وأوفرها حجماً لإعادة غرسها في الموسم التالي. إن رخاء المجتمع في أيدي منتقية البذور؛ فإذا فشلت في الانتقاء الجيد للحبوب، سوف ينضب المحصول وتجوع الأفواه وقد تنهار القوة الوراثية للمحصول. أما إذا أحسنت الانتقاء فإن سلالات الأرز سوف تتلاقح مادتها

الوراثية وتصبح أكثر تماسكاً وحجماً وتغذي الكثير من الأفواه.

لقد أتيت إلى هذه القرية مع الأنثروبولوجي الشهير، الأستاذ هارولد كونكلن Harold Conklin والذي كرس أكثر من أربعين عاماً من حياته لفهم ثقافات الأرز في أعالي الفلبين.[١] إنه يتحدث لغة الإيفوجاو بطلاقة حتى أنه ساهم في اختراع نظام للكتابة لهذه اللغة. لا يعرف القراءة والكتابة بين الإيفوجاو إلا حفنة من الأفراد ليس من بينهم منتقية البذور، فمعرفتها لا تكمن إلا في رأسها. لقد قضى العالم كونكلن سنوات في إجراء مقابلات معها لكي يسجل هذه المعرفة. يتمثل جل ما تعرفه منتقية البذور في معرفتها بالخصائص الدقيقة لأعواد الأرز والحبوب من حيث اللون والحجم والملمس ودرجة التهشم. إن لديها مجموعة كبيرة من المصطلحات الخاصة بأنواع الأرز وصفاته وهذا هو المؤهل الذي يسمح لها أن تنقل معارفها إلى الفتيات المرشحات للعمل كمنتقيات للبذور بعدها.

تحتوي لغة الأيفوجاو التي دوَّنها كونكلن وآخرون على مفردات معقدة لتقنيات الأرز. إن لغتهم تحتوي على ٢٧ اسماً مختلفاً للأواني الفخارية التي يحفظون بها خمر الأرز، وثلاثين اسماً لأنواع السلال المنسوجة المستعملة في حمل الأغذية. وتحتوي هذه اللغة على مائة وثلاثين عبارة تصنف تفصيلاً المدفوعات المالية التي تقدم عند استخدام حقول الأرز المستنقعية.[٢] إن لهذه اللغة كلمات معبرة مثل تيواتيو tiwātiw، وهو فعل يعني "يفزع الحيوانات والطيور والدجاج بعيداً عن الأرز الذي يجف".

يقوم وجود الأيفوجاو بأكمله على الأرز وزراعته، ففي أحد الأساطير، وهي الآن طي النسيان، منحت مخلوقات غير أرضية أطلقوا عليها اسم "مخلوقات عالم السماء" sky world people الأرز وأصول زراعته، في البدء، للإيفوجاو. لقد حرك الإيفوجاو الجبال بحق لزراعة الأرز. فلأنهم يعيشون على أوعر التلال، قام

الإيفوجاو بتغطية كل قدم مربع متاح لديهم بحقول مستنقعية واسعة تحيطها الأحجار. ولري تلك الحقول، نمت لدى السكان خبرة لا نظير لها في إدارة المياه. فلا تكاد تسقط قطرة من ماء المطر على جبالهم دون أن تتسرب في قناة وتحجز ثم توضع في خدمة ري الأرز. تغذي المدرجات الصخرية الواسعة شبكة من آلاف القنوات والحواجز والبرك وقنوات جر المياه. عندما سرت في محاذاة إحدى الطرق، رأيت ورقة شجر وحيدة في حجم كف اليد ثبتت في الأرض بأغصان كي توجه مجرى مائياً رقيقاً إلى حقل مستنقعي قريب.

أصبحت المعرفة بالأرز والتي تتضمن عمليات انتقاء البذور والزراعة وإدارة المياه وغيرها، أصبحت في أفول في الوقت الحاضر، إذ بدأت تصعد من أسفل الجبل أنواعٌ من الأرز حديثة مهندسة علمياً وأساليب للتسميد. أثناء قيادة السائق بي من مانيلا، كان ينحرف بصورة دائمة لتجنب أحواض تجفيف الأرز والتي تسمى بالاي palay والممتدة بطول الطريق السريع. عندما نظرت إلى حقول الأرز، لاحظت أن كل حقل فيها كان به لافتة تحدد نوع الأرز الهجين hybrid rice المستعمل وكذا المبيد الحشري المستخدم. عندما وصلنا المناطق المرتفعة، المناطق التي يسكنها الإيفوجاو، اختفت تلك اللافتات مما يوحي بأن بعض الأنواع التراثية من الأرز كانت لا تزال تزرع هنا وبقدر أقل من المبيدات.

يصعب على المرء أن يقف ضد التقدم، فقد ظهرت أنواع مختلفة من الأرز غزير الإنتاج (المُهَنْدَس وراثياً) مع ظهور الأسمدة الحديثة والمبيدات مما أدى إلى زيادة حقول البذور. ولكن ما هو الجانب السلبي من الصورة؟

إن الأرز الحديث هو موضوع بحث مكثف يشمل إنتاج سلالات جديدة معدلة وراثياً. ومما يثير التناقض أننا نرى أن صناعة البذور العالمية، والتي تحقق ما يعادل ١٥

شاماني من الإيفوجاو وهو بوجوون يبارك حصاد الأرز بالإنشاد وقرابين الأرز و خمره وأحشاء الدجاج.
تصوير: ك. ديفيد هاريسون .

مليار دولار في العام، تأخذ كثيراً من تقنيتها الوراثية من سلالات محاصيل "انتقاها وزرعها وحسّنها فلاحو العالم الثالث طوال مئات، بل وآلاف السنين" [٣] . يجد الفلاحون في الفلبين الآن أنفسهم تحت ضغط للتخلي عن تقنياتهم التراثية في زراعة الأرز، بل والتخلي عن سلالات الأرز التي نمت عبر آلاف السنين علي يد أجدادهم. إن معهد الأرز الفلبيني Philippine Rice Institute والمعروف باسم Phil Rice يروج لسلالات أرز مهجنة ولاستعمال مبيدات وأسمدة لزيادة المحصول. ويقلل المعهد، علناً، من شأن المعارف التراثية ويعتبرها معتقدات شعبية غير ذات قيمة و تعوق

الزراعة الفعالة، ففي ظل المعتقدات التراثية، "كان الفلاحون يمتنعون عن الزراعة عندما لا يكون القمر بازغاً وعندما تكون الإيبون ipon "سمكة المليون" في موسمها، إذ إن هذا الوقت هو الوقت الذي تتكاثر فيه الحشرات". يرفض معهد الأرز الفلبيني هذه المعتقدات ويلقى بلائمة انخفاض محاصيل الفلاحين على "الخرافات التي استعبدتهم لسنين طويلة"(٤).

يضع الصراع الأيديولوجي الدائر الفلاحين المزارعين ذوي المعارف والأساليب التقليدية في مواجهة الاحتكار العالمي الذي يقوم بتصنيع المبيدات والأسمدة وسلالات الأرز المهجنة. يبدو أن هذا الاحتكار له اليد العليا، إذ إنه يدَّعي، خلال المدى القصير، تحقيق إنتاج أوفر للمحاصيل ودخل أعلى للمزارعين الذين يتخلون عن الطرق القديمة ويتبنون التقنيات الحديثة. تروج الإذاعة وورشات التدريب، بل الكتيبات الإعلانية والرسوم المتحركة ترويجاً مكثفاً لزراعة الأرز الهجين. وتتجاهل هذه الحملة الترويجية، التي كتبت بلغة التجلوج Tagalog، المعرفة المحلية المتخصصة بالأرز والكامنة في اللغات الصغرى المستخدمة في جميع أنحاء الفلبين والبالغ عددها ١٧٠ لغة.

ومؤخراً بدأ بعض الفلاحين في مقاومة الضغوط وتنظيم الاحتجاجات ضد الأرز الجديد. يقول دانيلو راموس Danilo Ramos من حركة الفلاحين الفلبينيين Philippine Peasant Movement : "على النقيض مما يدعيه معهد الأرز الفلبيني بأنه يخدم الفلاحين فإنه بالفعل يخدم مصالح الشركات العابرة للقارات والتي تتعامل في المنتجات الكيمائية الزراعية، نظراً لأن الأرز المهجن يساعد على الاستعمال الغزير للمبيدات والأسمدة التجارية"(٥).

رسم كاريكاتيري صادر من معهد الأرز الفلبيني يصور فلاحاً مطوراً يمنح حبوب الأرز المهجن لفلاح تقليدي يلبس مئزره. يقول الفلاح المطوّر بلغة الإلوكانو:"إننا نحصد كثيراً هنا في الشمال ."إهداء من معهد الأرز الفلبيني . الترجمة من الإلوكانو إهداء من دانتي أوبينا Dante Obcena.

ليس من الواضح إن كانت أساليب زراعة الأرز التقليدية ستصمد في وجه التقنيات الزراعية الحديثة والتغيرات الثقافية. ووسط هذا الجدل، يضيع دور المعرفة التراثية واللغات الفلبينية الصغيرة المتعددة التي تحتويها[٦] . وكما أننا نعتبر حق ممارسة الحياة التقليدية حقاً إنسانياً، فإننا، كذلك، نعتبر أنه حق أصيل للإنسان أيضاً أن يتحدث بلغة الأجداد والبحث عما تحتويه من معرفة. يجب أن يتمتع هذا الحق بالحماية حتى وإن بدت المعارف الشعبية واللغات الصغيرة ليست على درجة من الكفاءة في عالمنا الحديث. هل يجب أن يكون هذا خياراً ؟ أليس هناك من شيء نتعلمه من المعارف التراثية و يمكن أن يستفيد منه علم الوراثة الحديث وعلم المحاصيل؟ يمكننا الإجابة على هذا السؤال إذا أتيح لهذه اللغات وهذه الأنظمة المعرفية الفرصة أن تبقى حية في المستقبل.

هوامش دراسة حالة: الأرز الجديد في مقابل المعرفة القديمة

(١) تشمل دراسات كونكلن الشهيرة لثقافات الفلبين دراساته أعوام ١٩٥٤م ، ١٩٥٧م، ١٩٨٠ أ. انظر أيضاً (جين) كونكلن (٢٠٠٣ م). وتشمل بعض الاعمال البارزة المختارة حول ثقافة الايفوجاو وصورتها الاثنية دراسة برتون (Barton، ١٩٥٥م، ١٩٦٣م) ودولاوان (Dulawan، ٢٠٠١ م). التهجي عند الإوفوجاو تجده مفصلا في عمل كونكلن (١٩٩١ م).

(٢) كلمات تقنية الأرز. نيويل ويوليجون (Newell and Poligon، ١٩٩٣م). أسماء أوعية خمر الأرز (ص ٤٩٢) والسلال (ص ٥٨٦) ومصطلحات السداد المالي الخاصة بحقول الأرز المغمورة (ص ص ٥٧٢ الى ٥٧٦)، تيواتيو (ص ٤٩٤).

(٣) صناعة البذور، هورتادو(Hurtado، ١٩٨٩م، ص ٩٥).

(٤) "متحرر من الخرافات" Freed from Superstitions، كنديبان (Kindipan، ٢٠٠٥م، ص١٠) .

(٥) راموس، (Ramos، شبكة العمل ضد المبيدات الحشرية في منطقة آسيا والمحيط الهادى، ٢٠٠٤م).

(٦) يبدو أن كثيراً من الفلبينين الذين قابلتهم ينخرطون في أيدولوجية خاصة باللغة القومية مفادها النظر إلى كل اللغات الصغرى (غير القومية) على أنها مجرد لهجات، كما أنهم يناصرون التحول إلى لغات قومية أكبر مثل التجالوج أو الإلوكانو Illocano. إذا ما استمرت هذه النظرة الدونية للغات الصغرى وما تتضمنه من أنظمة معرفية فلن يتمسك بها أحد.